# كارمن .. جورج بيزيه

Georges Bizet CARMEN

هذه الأوبرا مقتبسة من قصة بعنوان «كارمن» للروائي الفرنسي «بروسبير ميريميه» Prosder Merimee وكان «ميريميه» قد قام بعده رحلات إلى إسبانيا حيث قابل فيها ألوانا شائقة من الناس، كما سمع قصصا غريبة عن الحياة الإسبانية. ومن أغرب القصص المثيرة التي سمعها تلك القصة التي تدور حول فتاة غجرية تدعى «كارمن». وقد أوحت حياة تلك الغجرية إلى «ميريميه» بكتابة القصة.

وقرأ «جورج بيزيه» Georges Bizet – الموسيقى الفرنسي – هذه القصة، فوجدها حافلة بكل ما تستطيع أن تعبر عنه الموسيقى. ومن ثم عكف على وضع ألحانها، فكان لنا منها تلك الدرة التي خلدتها دور الأوبرا في العالم.

**شخصيات الأوبرا:**

| | | |
|---|---|---|
| **مورال:** | **ضابط** | Mora Les |
| **ميشيلا:** | **فتاة ريفية** | Micaela |
| **دون جوزيه:** | **جندي برتبة أونباشي** | Don Jose |

**زونيجا:** قائد حامية الجند Zoniga

**كارمن:** فتاة غجرية تعمل في مصنع للطباق Carmen

**فراسكيتا** غجريتان صديقتان لكارمن Frasquita

**مرسيديس** Mercedes

**اسكاميللو:** مصارع ثيران Escamillo

**رمندادو** مهربان Remendado

**دانكايرو** Dancairo

**المكان:** «إشبيلية» والجبال المجاورة لها

**زمن الأوبرا:** حوالي عام ١٨٣٠

**الفصل الأول**

## المنظر - ميدان في إشبيلية

في الجانب الأيمن توجد بوابة مصنع للطباق. وفي الجانب الأيسر توجد ثلة من الجنود يدخنون أمام معسكرهم. المارة يتزاحمون هنا وهناك. يظهر الضابط مورال وهو يتفرس وجوه المارة شأنه شأن بقية الجنود. وفجأة تقع عينه على فتاة ريفية يجول ماء الحياء في وجهها، ويبدو أنها تريد أن تسأل عن شخص ما، فيقترب منها الضابط، وحينئذ تسأله في أدب جم:

- إني أبحث عن أنباشي يدعى جوزيه.. هلا تعرفه؟

فيخبرها بأن جوزيه سوف يحضر عندما يحل موعد خفرته، ويقترح عليها أن تنتظره. غير أنها لا توافقه وتستأذن في الانصراف.

ويسمع من بعيد صوت نفير معلنا تغيير الخفرة. ويأتي دون جوزيه فيخبره الضابط عن الفتاة ذات الرداء الأزرق والضفائر المنسدلة التي أتت تسأل عنه. ويجيب جوزيه بقوله:

- لابد أن تكون ميشيلا!

ويسمع صوت نفير للمرة الثانية معلنا بانتهاء دورية الضابط مورال فينصرف الضابط ويبقى دون جوزيه مع الضابط زونيجا الذي يبدأ يوجه إليه كلاما ذا مغزى عن صاحبته الحسناء التي أتت تسأل عنه. غير أن جوزيه يرد عليه في خشونة:

– قد يعجبنك فتيات المصنع. ولكني أحب ميشيلا!

ويدق جرس المصنع معلنا الثانية عشرة ظهرا وهو موعد انصراف العاملات، فتتدفق الفتيات خارجات من المصنع. ولكن الجنود القلقين يسألون في لهفة:

– أين كارمن؟.. إننا لا نراها!

وتظهر كارمن في الميدان من حيث لا يشعر أحد. إنها غجرية خليعة ذات جمال فاسق ساحر، قد وضعت في فمها زهرة متأرجة حمراء، وراحت تسخر من تهافت الجنود عليها. ثم تغني لهم أغنية «الهابانيرا» المشهورة التي مطلعها: «إنما الحب طائر كاسر يجول في الغابة.»

وتلحظ وهي تغني «دون جوزيه» وقد جلس هادئا يصلح سلسلة ساعته غير مكترث بوجودها، في حين أخذ بقية الجنود يرددون الغناء بعدها. ويجرح عدم اكتراث جوزيه كبرياء الغجرية، فتلقي في وجهه بالوردة الحمراء، ثم تتجه نحو المصنع وهي تطلق ضحكة ساخرة.

ويعلن جرس المصنع موعد بدء العمل من جديد، فتنصرف الفتيات ويبقى دون جوزيه وحيدا. إنه يمسك بالوردة التي ألقت له بها كارمن، وإذ يتنشقها يشعر بقشعريرة تسري في جسده. إنها لم تلق عليه إلا سحرها! فيقبض على الوردة في حرص ويخفيها في سترته.

وتمضي برهة يسمع بعدها صوتا رقيقا يناديه. إنه صوت ميشيلا! فيقبل على حبيبة طفولته يحييها. وتسلم إليه ميشيلا خطابا أحضرته له من والدته التي تقطن في القرية البعيدة عن الوادي. وتنصرف الفتاة الوادعة مسرعة قبل أن يفض الخطاب.

وما أن ينتهي جوزيه من قراءته حتى يحدث نفسه قائلا:

– لا تخافي يا أماه! فلسوف أفعل كما تشائين. إنني أحب ميشيلا، وسأتزوجها على الرغم من الوردة المسحورة!

وفجأة تنبعث من المصنع أصوات استغاثة صارخة. لقد طعنت كارمن إحدى زميلاتها بمدية حادة، وقامت على الأثر مشاجرة حامية.

ويقع اختيار الضابط زونيجا على دون جوزيه لينقذ الموقف، وبعد قليل يعود الجندي ومعه كارمن غير مكترثة بشيء، وفي غير مبالاة ترفض أن تجيب على أسئلة الضابط وتشرع في الغناء. ويستشيط الضابط غضبا فيصيح بها:

– إذا لم تكف عن هذا الاستهتار فسوف تتمين أغنيتك في السجن!

ويتركها الضابط تحت حراسة جوزيه.

وتتخطر كارمن في إغراء على الرغم من أن يديها مشدودتان إلى مقعد خلفها، وتغني للجندي الطيب القلب أغنية عاطفية وتغريه بما يوجد في حانة «ليلاس» من لذات ومسرات يمكن أن يتمتع بها إن هو أطلق سراحها.

ولا يستطيع جوزيه أن يصمد طويلا أمام إغراء الغجرية، فيقطع الحبال التي توثق يديها ويعدها بأن يقابلها في الحانة.

ويأتي الجنود الذين أرسلهم الضابط زونيجا لتسلم المتهمة، ولكن كارمن تستطيع بدهائها وسعة حيلتها أن تدفع جوزيه بيديها فيسقط فوق أقدام الجنود الذين يسقطون بدورهم على الأرض، فتتمكن بذلك من الفرار. وتثبت على جوزيه تهمة تيسير سبيل الفرار للمتهمة، فيصدر الضابط زونيجا أمره بالقبض عليه.

## الفصل الثاني

# المنظر - حنة ليلاس

الحانة حافلة بكثير من الغجريات اللاتي يرقصن ويعزفن على القيثارة. كارمن ترتدي زيا إسبانيا رائعا، وتتحدث مع صديقتيها فراسكيتا ومرسيديس وجماعة من الضباط.

يغلق «ليلاس» أبواب الحانة فيطلب الضابط زونيجا من كارمن أن تصحبه إلى منزله. وترفض كارمن، ولكن زونيجا يلح عليها:

– هل أنت متألمة مني؟ لقد أطلقت سراح جوزيه!

ويظهر في هذه اللحظة ضوء مشعل يقترب من الحانة.. فيقول الضابط:

– إنه «اسكاميللو» مصارع الثيران المشهور!

ويقترب المصارع المختال في زيه المزركش وحوله جماعة من المعجبين. ويشرب الجميع نخب مصارع الثيران العظيم.. ويرد اسكاميللو عليهم هذه التحية بأغنية «تريادور» المشهورة التي تصف مغامرات مصارع الثيران.

ولا تحول كارمن نظرها عن هذا المغامر الساحر طوال هذه الأغنية! ويسألها اسكاميللو بعد أن ينتهي من الغناء عن اسمها:

– أود أن أعرف اسمك حتى استخدمه كسحر كلما واجهت خطرا!

وتجيبه كارمن إلى طلبه..

ويغادر إسكاميللو الحانة مع الضابط زونيجا وزملائه تاركين كارمن مع صديقتيها فراسكيتا ومرسيدس، وهنا تصفق كارمن تصفيقا خاصا، فيخرج من حجرة جانبية رجلان عليهما طابع الغلظة والخشونة. إنهما المهربان «رمندادو ودانكايرو» اللذان تعمل كارمن وزميلاتها لحسابهما.

ويحث الرجلان كارمن وزميلتيها فراسكيتا ومرسيدس على اللحاق بهما في حملتهما التجريدية التي اعتزما القيام بها هذه الليلة. ولكن كارمن تجيب:

– لا أستطيع الذهاب، فأبي أحي!

وفي اللحظة التي يتوسلون فيها إليها أن تعدل عن رأيها، يسمع صوت الجندي دون جوزيه في الخارج يغنى أغنية عسكرية معروفة. لعلها إذن تستطيع أن تحثه على الانضمام إليهم!

ويترك المهربان كارمن بمفردها لتحيي حبيبها، فتأخذ في الرقص حول المقعد الذي طلبت من جوزيه الجلوس عليه.

ويقطع رقصها صوت بوق بعيد، فيتذكر جوزيه أنه نداء العودة إلى المعسكر ويهم بالانصراف. ولكن كارمن التي لا تعرف إلا نداء قلبها، تحتد

وترتسم على وجهها علامات السخط والغضب، فتقذف له بقبعته. وعبثا يحاول جوزيه أن يهدئ من ثورتها.

**جوزيه:** من الخطأ أن تهزئي بي يا كارمن.. اصغ إلي!

ثم يظهر لها الوردة الحمراء الذابلة التي كان يحتفظ بها في سترته وهو في السجن كدلالة على حبه المقيم لها، ولكن كارمن العتيدة تصر على رأيها.

**كارمن:** إذا كنت تحبني حقا، فعليك أن تتبعني إلى حيث الحرية في الجبال!

**جوزيه:** أليس من العار أن أتخلى عن العلم الذي من أجله أحارب؟

**كارمن:** إذن عد إلى معسكرك؛ فإني احتقرك! ويوشك الاثنان على الافتراق عندما يعود الضابط زونيجا ليرى هل قر رأي كارمن على اصطحابه الليلة إلى منزله. وإذ يلمح جوزيه يعنفها على تفضيلها جنديا عاديا عليه. ثم يأمر الجندي بالانصراف. ولشد ما تكون دهشته عندما يجيبه جوزيه:

– سوف لا أنصرف!

لقد سحقت الغيرة عقله فجعلته لا يدرك الموقف على حقيقته، وها هو ذا يدعو رئيسه للنزال فينتصر عليه ويرديه قتيلا! وتمضى برهة من الصمت الرهيب تسأله بعدها كارمن:

– والآن.. هل تنضم إلينا؟

ويتبين الجندي خطر الجريمة التي اقترفها، فلا يتردد في الانضمام إلى جماعة الخارجين على القانون.

**الفصل الثالث**

# المنظر - في الجبال

يقترح دانكايرو – أحد المهربين – على العصابة أن تحط رحالها، ثم يرسل بعض الأفراد تجاه الساحل للاستطلاع، وترقد الغجريات على الأرض في تراخ وقد ارتدين ملابسهن الفضفاضة المزركشة.

أما دون جوزيه فيجلس وقد بدت عليه علامات الأسى العميق. إنه يتطلع إلى ذلك الوادي البعيد حيث تعيش أمه ويسأل نفسه: ترى هل بقيت لديه ذرة من الشرف؟

وتدرك كارمن ما يخالج نفس الجندي فتسأله في عنف:

– إذا كانت حياتنا لا تلائمك، فلم لا تعود إلى أهلك؟

ويثور جوزيه لهذا السؤال الجارح، فيضع يده على

– تستطيع أن تقتلني إن شئت. ولكن.. ماذا بعد الخنجر المعلق إلى جانبه.

ولكن كارمن تبادره بقولها: ذلك؟!

وتمضى فترة صمت تذهب بعدها كارمن إلى حيث تجلس زميلتاها فراسكيتا ومرسيدس تكشفان عن الحظ بالورق. وتكشف كارمن عن حظها، فلا يكشف لها اثنتي عشرة مرة متتالية إلا عن شيء واحد: الموت!

ويعود دنكايرو ليعلن خلو الساحل من الحراس، اللهم ثلاثة يقفون عند ممر جانبي، فيطلب من كارمن وزميلتيها الذهاب لمراودتهم. أما دون جوزيه فيبقى لحراسة البضائع التي تم السطو عليها.

وهنا تظهر ميشيلا – حبيبة طفولته القديمة – وقد ارتدت ثوبها الأزرق، ومعها حارس تطلب منه الابتعاد حينما تقترب من المكان الذي يجلس فيه جوزيه. وما إن تقع عينها عليه حتى تشير إليه وتناديه، ولكن جوزيه لا يسمع نداءها لعلو الصخرة التي يجلس عليها.

وفجأة يسمع صوت طلقة نارية، فتختفي ميشيلا خائفة وراء صخرة جانبية. وفي هذه اللحظة يظهر إسكاميللو – مصارع الثيران – وقد أمسك بقبعته ليرى موضع الثقب الذي أحدثته الطلقة!

ويندفع إليه جوزيه ويسأله في حدة:

– من أنت؟

– إسكاميللو مصارع الثيران. وقد أتيت لأبحث عن فتاتي الغجرية التي تدعى كارمن. وكان آخر ما سمعته عنها أنها وقعت في غرام أحد الجنود. غير أن حبها لا يدوم على ما أظن أكثر من ستة أشهر!..

ويسحب كل من الرجلين خنجره استعدادا للقتال. ولكن كارمن لا تلبث أن تعود فتوقف المبارزة بمساعدة زميلتيها. ويقول إسكاميللو قبل مغادرة المكان:

– أود قبل أن أترككم أن أدعوكم جميعا لمشاهدة مصارعة الثيران في إشبيلية، وبطبيعة الحال سوف يأتي لمشاهدتي هناك من يحبني!

ويعثر ريمندادو – أحد المهربين – أثناء عودته على ميشيلا مختبئة وراء الصخرة، فيأتي بها إلى جوزيه. وتقول الفتاة الريفية بصوت ساذج حزين:

– إن أمك تبكي من أجلك. فارحمها وعد إليها معي.

وتؤيد كارمن هذا الرأي بقولها:

– نعم.. اذهب معها فان حياتنا هنا لا تناسبك!

ولكن جوزيه يشتم من قول كارمن عدم تعلقها به، فيصر على البقاء.

وتتوسل إليه ميشيلا مرة ثانية:

**ميشيلا:** ولكن أمك في طريقها إلى الموت!

ويقبل جوزيه بعد لأي العودة معها. وما أن يبتعد قليلا حتى يسمع من بعيد صوت إسكاميللو وهو يغني أغنية توريادور المشهورة.. وتبقى كارمن وحيدة. فتمسك بورق اللعب وتطوح به في الهواء. إنها سوف تسخر من الحظ ومن القدر، وسوف لا تموت كما قال لها الورق، بل ستعيش من أجل إسكاميللو. ترى هل تطول سخريتها من القدر؟!..

## الفصل الرابع

# المنظر - مدخل ميدان مصارعة الثيران في إشبيلية

لفيف من الباعة الجائلين يتزاحمون ويعرضون بضاعتهم على الجمهور الذي أخذ يتدفق ليشاهد مصارعة الثيران. ويتقدم مصارعو الثيران في موكب رائع يصحبهم ضباط المدينة. وفجأة يتعالى هتاف الجمهور. إنه يحيي إسكاميللو بطل مصارعة الثيران!

وينزل إسكاميللو من عربته، وتنزل من جانبه كارمن وقد ارتدت ثوبا فاخرا وتزينت بمجوهرات ثمينة، فيساعدها إسكاميللو وهي تهم بالنزول.

ويأتي جوزيه بدافع الشك والغيرة وراء كارمن، فيندس بين الجمهور، ويتوارى خلف سور الملعب. ويتحين فرصة وقوف كارمن وحيدة بعد أن ذهب عنها إسكاميللو ليرتدي ملابس المصارعة، فيتقدم منها ويتوسل إليها في خنوع تمجه نفسها:

– إنني لا أهددك. ولكني أتوسل إليك.. دعينا نبدأ حياة جديدة بعيدة عن هنا!

– من المستحيل، فقد انتهى كل شيء بيننا. ويتعالى هتاف الجمهور لانتصار إسكاميللو!

ولكن هذا النجاح الذي يثلج صدر كارمن، يسحق قلب جوزيه. فيستل مديته ويغمدها في صدرها. وتصرخ كارمن في رعب ثم تسقط مضرجة بدمائها.

ويوجه جوزيه كلامه إلى الجمهور الذي أقبل على الفور:

– تستطيعون أن تقبضوا عليّ لقد قتلتها!

ثم يلقي بنفسه على جسد كارمن وهو ينشج بالبكاء:

– كارمن يا معبودتي!

ستار